رثــاء النفس بين شـاعرين عبد يغوث الحارثي ومالك بن الريب (دراسة تحليلية)

الأستاذ المساعد الدكتور
نصرة أحميد جدوع الزبيدي
جامعة الانبار- كلية التربية للبنات
قسم اللغة العربية

التمهيد

مثل شعر الرثاء احد الأغراض منها ض الشعرية الكبيرة في الشعر العربي ولاسيما شعر ماقبل الإسلام وبالنسبة للون المعروف برثاء النفس فكان احد اقل الألوان شيوعا بسبب السمة الجمعية للشعر العربي عموما وتعبيره على الرغم من ذاتيته عن هموم الجماعة وشؤونها كما انه احد اقرب الألوان محاكاة لأدق تفاصيل المشاعر الإنسانية, وقد اقترن بالموت لان رثاء النفس هو نوع من المواساة لها في وقت ترك فيه الشاعر ليواجه مصيرا محتوما, ومع إننا يمكن ان نعثر على نماذج لرثاء النفس تقع خارج فكرة الموت وانتظاره إلا ان وجوده عنصر مهم لرفد القصيدة بالأفكار اذ يتحول إلى فكرة مركزية تنبثق عنها الأفكار الرئيسة مثلما انه يحاكي واحدة من أهم غرائز النفس البشرية وهي غريزة حب البقاء ولاشك في ان رثاء الفرسان لأنفسهم هو أمر يتعارض ومبادئ الفروسية وقوانينها، إن النصين اللذين بن أيدينا لشاعرين فارسين هما عبد يغوث الحارثي الجاهلي والشاعر الأموي مالك بن الريب حملا من الملامح الإنسانية وصدق الإحساس مايجعلنا نتوقف طويلا إمامهما لأنهما مزيج من الفخر والرثاء يجمع تناقض الأفكار والإيقاعات التي امتاز بهما كل غرض على حده وبما ن المسافة الزمنية الفاصلة بين العصرين الجاهلي والأموي تنحسر إلى حدود لاتسمح كثيرا بالعثور على ملامح تجديد حقيقية اللهم إلا فيما يتعلق بالأفكار التي أوجدتها البيئة التي لم تكن

جديدة على العرب لابل ان المجال الأرحب المفترض ن لتغير الأفكار وتجددها وهو الإسلام وأثره يكاد أن يكون معدوما اللهم إلا من إشارة مالك بن الريب إلى(بيعه الضلالة بالهدى) في قوله:(١)

الم ترني بعت الضلالة بالهدى وأصبحت في جيش ابن عفان غازيا

فنحن أمام نصين جاهليين بالروح والفن وان افترقا في انتمائهما الزمني مثلما ان مالك بن الريب يبتعد عن مفهوم الشهادة المعتاد في أشعار الفاتحين من الشعراء مما نجده في شعر الفتوحات. ولاشك تحسر عبد يغوث على ذهابه من مفردات حياته التي تتبدى أمامه بتفاصيلها الجميلة وهي تتحول إلى ماض ستنقضي حتى ذاكرته بعد ان يواجه مصيره المحتوم يختلف نظريا عن حسرة شاعر إسلامي في حين ان الواقع المنظور في النصين يكشف مقتربات ومفترقات بينهما وسيظهر إنهما تشابها واتفقا أكثر مما اختلفا وقد يمثل ذلك مؤشرا على حقائق عدة تطرحها النصوص منها ضعف الأثر الإسلامي في شعر مالك لاسيما وانه كان احد اللصوص الفتاك كما تروي سيرته وان النوازع الاجتماعية كانت لاتزال سائدة في المجتمع على الرغم من قوة تأثير الإسلام في المجتمع وان بقاعا كثيرة ظلت بمنأى لاعن الصراعات التي شهدها العصر فحسب بل بعيدة حتى عن التأثر العميق به فالخروج للجهاد لم يكن غاية عند مالك بن الريب قدر كونه وسيلة تؤمن موردا للعيش غير قطع الطرق مثلما غيرت الأفكار التي عرضها الصورة عن مفهوم الصعلكة في الإسلام, وهو ما يستكشف عند النظر المتأني في شعره.

وبالنسبة للشاعرين المنتميين إلى عصرين مختلفين ومدرسة فنية واحدة هي مدرسة القصيدة الجاهلية وأسلوبها المتفرد فهناك نقاط التقاء واختلاف في الأفكار غير ان نقاط الالتقاء أكثر كما سيرد وبالنسبة للأسلوب فقد فرض العصر معاييره على طريقة التعامل مع الأفكار والتعبير عنها وإذا عدنا إلى سيرتهما وجدنا المصادر تذكر اليسير عن شعر عبد يغوث فلم يذكره ابن قتيبة في كتابه (الشعر والشعراء) ويبدو انه على الرغم من شهرته فارسا كان شاعرا مقلا وذكره المفضل بعد ان ضمن قصيدته التي بين أيدينا وهي المفضلية رقم(٣٠) وقال عنه(هو عبد يغوث بن وقاص الحارثي وكان اسر يوم الكلاب)(٢)وقال عنه صاحب معجم تراجم الشعراء الكبير:(عبد يغوث بن صلاءة وقيل عبد يغوث بن الحارث شاعر جاهلي يماني وفارس شجاع وسيد لقومه من قبائل بني الحارث بن

كعب وقائدهم يوم الكلاب الثاني وهو من بيت عريق في الشعر في الجاهلية والإسلام منهم اللجلاج الحارثي ومسهر بن يزيد بن عبد يغوث وجعفر بن علبه اسر يوم الكلاب الثاني وخير كيف يموت فأختار ان يشرب الخمر صرفا ويقطع عرقه الأكحل فمات نزفا)(٣), وأما مالك بن الريب فقال عنه ابن قتيبة: (من مازن تميم كان احد الفتاك اللصوص لحق بسعيد بن عثمان بن عفان وغزا معه خراسان ولم يزل بها حتى مات)(٤). اسمه مالك بن الريب بن حوط بن قرط من الظرفاء وفتاك العصر الأموي رويت عنه أخبار في قطع الطرق ورآه سعيد بن عثمان بالبادية وهو في طريقه بين المدينة والبصرة ذاهبا إلى خراسان وقد ولاه عليها معاوية سنة(٥٦هـ) فأنبه على سيرته في العبث وصحبه معه إلى خراسان فشهد فتح سمرقند وتنسك ومرض في مرو واحس بالموت فقال قصيدته المشهورة والتي تقع في (٥٨) بيتاً (٥) .

ولابد قبل الشروع في دراسة النصين من التأكيد على ان الدراسة في مثل هذه الموضوعات تسير في محاور ثلاثة الأول محور الأفكار والمعاني والثاني محور اللغة والأسلوب في حين ان المحور الثالث يتضمن عرض مقاربة نصية قد تقود إلى التعرف على مواطن الإبداع والتميز لنص عن آخر.

ملامح رثاء النفس بين النصين:

ينضوي النصان تحت موضوع رثاء النفس وتتشابه الظروف التي أوجدتهما إلى حد بعيد مثلما يشترك الشاعران نفسهما في هذه الظروف ونلخصها بالاتي:

١- ان النصين وردا في موقف مابعد المعركة فعبد يغوث قال قصيدته بعد أسره يوم الكلاب كما مر في سيرته ومالك بن الريب قالها بعد مرض سببته الإصابة في المعركة في إحدى معارك المسلمين في خراسان .

٢-في النصين حسرة واضحة على الحياة الماضية التي عاشها كل منهما فالحارث يستذكر مفردات حياته الماضية الرغيدة التي عاشها ويعرض لخصال رفعته بين الناس وفق معايير عصره كشرب الخمرة والكرم والفروسية وهو الأمر الذي عرض له مالك مع غياب عنصر الخمرة طبعا بسبب البيئة الإسلامية التي حرمت على الشعراء وغيرهم شرب الخمرة والتغني بها كما اعتاد أسلافهم في الجاهلية.

٣-مثل موقف انتظار الموت علامة فارقة ميزت النصين وما يتبعه من مشاعر خاصة أفرزت أفكارا وسمتهما بأجواء الحزن العميق.

٤-اعتماد أسلوب موحد في الافتتاح اعتمد على الأداة(ألا) مع النهي عند عبد يغوث والتمني عند مالك بن الريب تماشيا مع الحالة النفسية والرغبات التي ينفرد كل منهما بها عن الآخر.

٥-التجريد في الخطاب لصاحبين مفترضين قد يكونا اقرب إلى الحقيقة الواقعة عند مالك بن الريب لأنه نقل مريضا ومات ودفن في الطريق وقد استفاد الشاعران من صيغة الخطاب هذه في عرض موسع للأفكار ولاسيما رؤية كل منهما لموضوع الحياة والموت إذ شكلت الحياة عنصرا مركزيا وجه النص باتجاه رؤية الماضي الذي يظهر بأبهى صوره في كلا النصين وهي أي الحياة طارئة إزاء حتمية الموت الآتي لامحاله من هنا جاء استذكارهما للرموز السابقة فعبد يغوث يذكر أناشيد الرعاة وزوجته وجاريتيه والخمرة والصحب والخيل والرماح في حين ذكر مالك تفاصيل مامر من حياته التي يفتقدها قبل ان يموت أصلا وسيفتقدها بعد موته أهله وجواده ورمحه ومرابع صباه وقد فضل البدء بالجواد الذي سيفتقد من يسقيه لأنه في عرفه الوسيلة الأقرب والاهم التي يمكن ان تنقله على بقية مما فيه من أمل لقاء الأهل وهنا يكمن الفرق بينهما فالرموز وسيلة للاستذكار لما مضى من العمر عند عبد يغوث وهي وسيلة للأمل باللقاء أو على الأقل إيصالها بوصفها تركة لمن سيجزع عليه من الأهل والعشيرة.

٦-استخدام صيغة مألوفة في أدب ما يمكن تسميته بـ (الرسائل الشعرية) وهي تجريد (راكب)ما لنقل خبر الاحتضار وهي كما ستتضح مسالة مقصودة لغايات فنية. هذا إلى جانب أمور أخرى ستكشف عنها الدراسة المعمقة للنصين.

أولا- الأفكار والمعاني

ان العودة إلى النصين وتأمل الأفكار الواردة فيهما تكشف وحدتها إلى جانب المضامين العامة والابتداء بأسلوب واحد يعتمد على (ألا) عند عبد يغوث في قوله:(٦)

ألا ،لاتلوماني، كفى اللوم مابيا فما لكما في اللوم نفع ولاليـا

ومالك في قوله:(٧)

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بجنب الغضا أزجي القلاص النواجيا

فمناداة عبد يغوث لصاحبيه تتضمن النهي عن لومه ممزوجا بحسرة واضحة لاتحمل آثرا للندم على ماقدم عليه من أمر انتهى به هذه النهاية ولانفع أصلا يرتجى من لومه لان كل شيء قد فات وتتضح فكرة الحسرة في البيت الثالث أكثر بذكره (الأخ) وهي المفردة الدالة على الجماعة التي خرج مقاتلا لأجلها يقول:(٨)

فيا راكبا ،إما عرضت فبلغن ندامـاي، من نجران ألا تلاقيا

ويكرر توجيه الخطاب إلى راكب غير مجدد لإيصال رسالته إلى نديميه في نجران يبلغهما فيها باستحالة اللقاء وأسلوب تجريد (راكب ما) أسلوب مألوف في القصائد الجاهلية وربما كان السبب وراء استخدامه اعتماد حياتهم القائمة على الحل والترحال على الإبل والخيل وهناك مسالة تتضح في أشعارهم في هذا الصدد إذ ذكر الشعراء الناقة في الحديث عن الحبيبة الراحلة ومشاهد الرحيل واستخدموا الحصان في الصيد ومشاهده و(الخيل) عند الحديث عن المعارك وبطولاتهم فيها على ان المقصود هنا بالراكب راكب الفرس لأنها أسرع مايتناسب والرغبة في إيصال الخبر بسرعة في واحدة من مناسبات الفخر بالمنزلة التي يحظى الشاعر انه يحظى بها في قومه ولاشك في ان فارسا واثقا من قدراته وجد نفسه في موقف ضعيف كالأسر سينطلق لتبرير الخسارة وتعداد الظروف التي أدت به إلى ماهو عليه فقومه استحقوا الملامة ايضا للطريقة التي قاتلوا بها واندفاعه للقتال وحيدا يدافع عنهم بعد تراجعهم وتركهم له وحيدا ومع انه كانت أمامه فرصة للنجاة بفرس قادرة لو شاء على ذلك فهي حسنة الخلق قوية البنية وآثر البقاء مع اشتجار الرماح وهول المعركة لتتضح هنا ماهية اللوم الذي ابتدأ به القصيدة وهو لوم وجهه إلى قومه لتركهم له وتخاذلهم عنه حتى ترك ليقع في قبضة العدو:(٩)

جزى الله قومي بالكـلاب ملامة صريحهم، والآخرين،المواليـا

أبا كرب ، والايهمين كليهمـا وقيسا، بأعلى حضرموت،اليمانيـا

ولو شئت نجتني،من الخيل،نهدة ترى خلفها الحو، الجياد، تواليـا

وهذا التسلسل والترابط للأفكار السابقة في الأبيات السبعة المذكورة هومايميز أشعار الفرسان التي تقوم على جزئيات تستجلي شجاعة الفارس وثباته في مواقف الحرب وأهوالها ومنها تجريد اللائمة أو لائمين ومنها تبرير الهزيمة إن وقعت أو الاعتذار عنها في قصائد أخرى .
وينصرف عن حديث الحرب وأخطائها إلى الانكفاء على الذات التي باتت رهينة الأسر ويطلب امن آسريه ان يحسنوا معاملته بما هو اهل له وبما يليق بفارس كريم مثله:

أقول، وقد لسـاني، بنسعة أ معشر تيم، أطلقوا عن لسانيـا

يقول التبريزي:(هذا مثل واللسان لايشد بنسعه إنما أراد افعلوا خيرا ينطلق لساني بشكركم فإنكم مالم تفعلوا فلساني مشدود لااقدر على مدحكم وقال أبو عبيده:كانوا قد شدو لسانه مخافة هجاءه فجعل لهم ألا يهجوهم فأطلقوا لسانه)(١٠)
ويبدو كلام أبي عبيده اصح لان سياق القصيدة ومعناها والأبيات السابقة تكشف عدم إمكانية الاستكانة بالمدح لأنه قبل بما عرف عنه من شجاعة تقبل الموت فلا داعي لان يطلب إليهم إطلاق لسانه بالمدح بان يحسنوا معاملته لأننا إزاء رجل محب للحياة لأنها اعتاد أن يعيشها كما يحب فلا يكابر وهو يرى اختلاف الأمور إلى العدو مثلما يدرك ان لاحقوق له وهو في هذا الموقف غير حق الرفق بالأسير مما تعارفت عليه العرب في عهودها ومواثيقها فيطلب الرفق به ومعاملته باحترام لشعوره بأنه يستحق حتى احترام الخصم بدليل قوله السابق (فان تقتلوني تقتلوني سيدا...البيت) ويعرض المال لفك أسره وهم سيكسبون في كلا الحالين مع فرق انه سيموت سيدا كما عاش لابل إنهم سيعززون مكانته التي يتمتع بها, وفي نقطة بين الحياة والموت يلتفت متحسرا على مافات فلا يزال غير مصدق انه سيفتقد مظاهرها, أناشيد الرعاة في المراعي وتجاوب أصوات الإبل وينتقل إلى كونه فارسا انتهت به الأقدار التي لاتصدق إلى الأسر وشكلت إشارته إلى اهتمام النساء به رغم ذلك مدعاة للفخر ناسبت الظرف الحالي فبعد ان فرغ من الفخر بخصاله حرا عاد ليسردها وهو أسير وكل من يعرفه يعرفه كذلك فزوجه تعرف انه أسد في الوغى وأسد في الأسر يسير الى مكارم لايسير إليها سواه ويقول احد الباحثين: (والشاعر إذ يفتخر بقوته في ظاهر الأمر يطمئن نفسه

في الحقيقة بان حياته لم تذهب عبثا فقد أغناها بألوان المتعة وضروب المفاخر ولكنه يسوق كلامه في حزن وفي أسى على فوات هذه المتع وعجزه الراهن عن جني المزيد منها)(١١)، فيقول(١٢)

وقد علمت عرسي، مليكه، أنني أنا الليث، معدوا عليه ، وعاديا
ونحار للجزور راحلا وراء طموحاته
وقد كنت نحارا للجزور، ومعمل الـ مطي، وامضي حيث لاحي ماضيا
وأنحر، للشرب الكرام، مطيتي وأصدع، بين القينتين، ردائيا

وهي خصال تخلد صاحبها وان ناله الموت إلى جانب الثبات في الوغى واقتحام المنايا والمهارة والدربة في القتال بصنوف الأسلحة ومواجهة الكتيبة الضخمة بجرأة حيث يقول:(١٢)

وكنت إذا مالخيل شمصها القنا لبيقا، بتصريف القناة،بنانيا
وعادية، سوم الجراد، وزعتها بكفي، وقد أنحو إلي العواليا

وقد خص الرماح بالذكر هنا وهي المستخدمة في الطعان البعيد لسببين:
الأول: انه بارع في القتال بها براعته في القتال بالسيف.
الثاني: وصف عدوه بالجبن إذ أنهم (انحوا) إليه بالرماح أي أمالوها خوفا من التقرب إليه ومواجهته.
وكان لابد في نهاية القصيدة من ترك علامة للذكرى فهو الراكب جواده للذة الصيد والطراد وهو الممتطي للخيل في سوح الوغى والكريم في إراقة المال على الخمرة والميسر وفارس في الحب كما هو فارس في الحرب.
ولاشك في ان الأفكار المتعلقة بالحرب هي نفسها عند مالك بن الريب مع اختلاف التفاصيل إلا أن مفردات الفخر الواقع خارج اطر الفروسية تختلف تبعا للبيئة والزمن وبالتمني ابتدأ مالك قصيدته وهي حيلة من لاحيلة له وهو أسلوب تكرر في القصيدة في قوله:(١٣)

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بجنب الغضا أزجي القلاص النواجيا
فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه وليت الغضا ماشا الركاب لياليا
فيا ليت شعري هل تغيرت الرحى رحى الحرب أو أضحت بفلج كما هيا
ويا ليت شعري هل بكت أم مالك كما كنت لو عالو نعياك باكيا

بصورة مباشرة وفي مواضع أخرى بصورة غير مباشرة في الأفكار التي تقوم على التذكر والتحسر على الماضي الجميل فهو قد باع ذلك كله وباع حياته واختار مرضاة الله تعالى في خروجه للغزو في وقت ما خطر على باله انه سيختار التخلي فيه عن أسلوب حياته ومابين تصارع الرغبات للبقاء او الالتحاق بالجيش المتجه إلى خراسان غض على مضض الطرف عن أمور كان يعتقد أنها تستحق البقاء كمصير اليتم الذي ينتظر ابنته وبنيه عموما وتغاضيه عن الإشارة التي بعثت بها الظباء التي زجرها وهي عادة جاهلية حرمها الإسلام (١٤) والتي نهته عن المضي في ماهو أمامه وأبويه المسنين وكل من نصحه من صحبه وقرابته والاهم نفسه التي تتوق للبقاء في الديار لابل انه يقسم على عدم العودة إلى خراسان إن كتب له الله الرجوع سالما ونلمح تأثره الخفيف بالإسلام على الرغم من انه خرج للغزو في سبيل الله ألا إن حضور العنصر المادي في فكره وفكرة الغزو نفسها التي مثلت بديلا عن قطع الطريق لااكثر كانت أسبابا في عدم وضوح جانب الجهاد الذي انطوت عليه فكرة الالتحاق بالجيش المتجه إلى خراسان وبعد تلك الحسرات هاهو يبحث في أسلوب متشكي عمن سيبكي عليه وهو في ارض الغربة :(١٥)

الم ترني بعت الضلالــة بالهدى وأصبحت في جيش ابن عفان غازيا
دعاني الهوى من أهل ودي وصحبتي بذي الطبسين فالتفت ورائيــا
فلله دري يوم اترك طـائعــا بني بأعلى الرقمتين ومالياــ

حتى يقول:

تذكرت من يبكي علي فلم أجد سوى السيف والرمح الرديني باكيا
وأشقر محبوك يجر عنــانه إلى الماء لم يترك له الدهر ساقيــا

فمن اقرب لمقاتل من سيفه ورمحه وفرسه التي ستعدم بعد موته من يسقيها ان عطشت ويستأنس بخطاب صاحبيه وعلى مساحة أربعة عشر بيتا تقريبا الصاحبين المفترضين أو الحقيقيين فعلا لان الموقف يناسب وجودهما الفعلي على عكس مانرى في نص عبد يغوث وحيث لاامكانية لوجود صاحبين في الأسر يكلفان بإيصال رسالته وتتبدى في الأبيات الخاصة بالدفن وتهيئته له حالة الجزع التي يعيشها والتخوف الخفي من الموت حبا بالحياة وحسرة عليها وهو أمر لانجده في أشعار الفرسان وما يفترض أن تقوم عليها ويتناقض مع كل مايمكن ان يقوله عن بأسه وشجاعته فقصيدته رثاء للإنسان فيه على عكس قصيدة عبد يغوث التي

رثت الفارس والإنسان معا مع إقرار مالك انه عاش إنسانا استمتع بحياته وفارسا في الحرب عرفته سوحها ويجعل من سحب أصحابه له عند الدفن مدعاة لإبراز شجاعته فهو قد كان قبل اليوم صعب القياد وهو أمر لايعكس الشجاعة والمنعة بقدر كونه يعكس الإقرار بقدرية الموت وحتميته تسلطه مهما كان الإنسان منيعا وصلبا ومابين سوح الوغى والقفر الذي سيدفن فيه مشاعر من الحسرة والألم لابل انه يتحسر على ارثه من المال الذي جهد في جمعه والذي سيؤول إلى الغير فمع الحزن الذي سيصيب أبنائه وأحبائه سيصيبهم المال الذي سيرثونه :(١٦)

فلن يعدم الولدان بثا يصيبهم ولن يعدم الميراث مني المواليـا
وأصبح مالي من طريف وتالد لغيري وكان المال بالأمس مالي

وهي فكرة دنيوية تشي بتعلق مريض بالحياة يبتعد عن مفهوم الخلود الذي طرق أبوابه عبد يغوث في قصيدته والتي عززت القيم المعنوية التي تخلد الإنسان بعد ميتة كهذه وهذه الأفكار صدى للصعوبات التي أفرزتها طبيعة العصر الأموي وحيث البوادي التي انعزلت سياسيا واقتصاديا بسبب سياسة الأمويين وانصرافهم الى الانشغال بصراعين خارجي تمثل في الفتوحات وداخلي تعلق بالسلطة وأحقيتهم بها علما بان الفتاك واللصوص شكلوا فئة واسعة أبدعت فنا شعريا قديما بملامح جديدة سيرد تفصيل الحديث عنها لاحقا.

وفي تساؤله عن بكاء زوجه (ام مالك) عليه وطلبه إليها أن تعتاد زيارة القبور وتتأمل قبره الذي تلاعبت به الريح ودرسته وهو رهين ظلمته ووحشته اختلاف واضح عن تصور عبد يغوث لردة فعل زوجه فهو على يقين إنها تعرف حين تنعاه أنها تنعى فارسا شجاعا قل مثيله في الرجال , يقول:(١٧)

ويااليت شعري هل بكت أم مالك كما كنت لو عالوا نعياك باكيـا
إذا مت فاعتادي القبور وسلمـي على الرمس اسقيتي السحاب الغواديا

وبالنسبة للراكب المفترض الذي يجرده هنا فهو حقيقة فنية لأنه كما أسلفنا أسلوب شائع لكنه جرده هنا لغايات تتفق وخط القصيدة فهو يطلب اليه السلام على شيخيه(أمه وأبوه) وابن عمه وخاله ويوصي بناقته ويقلب كفيه فلا يرى في وحشة المكان النسوة اللاتي سيبكينه لتكون خاتمة النص صورا متداخلة من الذكريات الماضية والتفاصيل التي يفترض حصولها بعد شيوع خبر وفاته استكمالا للتعلق

الذي اشرنا إليه بالحياة وقد عكس في رثاءه صورا للعلاقات العائلية من خلال ذكر الأهل والأبناء والأقارب مفصلا ولتنتهي القصيدة نهاية تشبه البداية والتفاصيل الواقعة بينها على عكس النهاية التي انتهت بها قصيدة عبد يغوث وحيث رجل اخذ نصيبه من الحياة وعاشها كما يريد وان تحسر فحسرته على انقطاعه عنها لاعلى مضيها الحتمي مهما طال به الأمد.

وإذا شئنا أن نصف بكلام موجز الفرق بين الأفكار والمعاني في النصين لقلنا ان نص عبد يغوث نص نابض بالحياة وان كان صاحبه يستقبل الموت في حين ان نص مالك بن الريب كان نصا ميتا مع انه أسهب في وصف الحياة وتفاصيلها الدقيقة غير أنها لم تقع إلا في سياق تذكر بحسرة وتصور لما يلي من طقوس بعد الموت وكلها تقع في إطار سلبي لم يقدم للنص غير افتراضات ولم يعكس تفكيرا ايجابيا مع ان الشاعر كان بإمكانه أن يختار احد أسلوبين جاهلي يركز على فكرة المآثر التي تكسب الإنسان خلود الذكر ،وإسلامي يؤكد على مفهوم الثواب الحسن المتمثل للجنة فيمن في موقعه مقاتلا في سبيل الله.

ثانيا: اللغة والأسلوب

لاشك أن لكل شعر ملامحه الفنية الخاصة وهو يعبر عن المرحلة الزمنية التي ينتمي إليها ومع الإقرار بان المسافة الزمنية الفاصلة بين عصري النصين تكاد تكون قليلة بمعايير الفن الشعر إلا إن هناك نقاطا للاختلاف مثلما ان هناك نقاطا للاتفاق بينهما لاسيما فيما يتعلق بالأسلوب فأسلوب الافتتاح للقصيدتين اختلف مع وجود أداة الافتتاح(ألا) وهي في الحالتين أفادت التنبيه الذي يتناسب مع أهمية الغرض الذي انشيء من اجله النص مع ملاحظة ان عبد يغوث ابتدأ القصيدة بأسلوب النهي في حين كان أسلوب التمني هو نقطة الانطلاق لمالك بن الريب في عرض مايريد إيصاله من رسالة إلى قومه ومثل الأسلوب القصصي السمة المشتركة الأبرز بين النصين وقد اعتمد على التجريد للائمين مفترضين في مطلع قصيدة عبد يغوث في قوله:(١٨)

ألا ، لاتلوماني، كفى اللوم مابيا فما لكما في اللوم نفع ولاليـا
الم تعلما ان الملامة نفعها، قليل و ما لومي أخي من شماليـا؟

وهو أسلوب مألوف ودارج في أشعار الفرسان والأشعار المرتبطة بخصلة الكرم ومن روادها عروة بن الورد وحاتم الطائي وكعب بن زهير (١٩) وقد يكون اللائمان بديلا أسلوبيا في مقاطع الافتتاح عن (قفا) وحيث الدعوة إلى الوقوف في القصائد التي ناسب موضوعها الاستفتاح بالوقوف على الأطلال واستخدام التنبيه في القصائد التي تنطوي على طلب كف اللوم أو تجريد اللائمين أسلوب مألوف ويكاد هذا التلازم ان يكون تقليديا في هذا النمط من الأشعار كقول دريد بن الصمة:(٢٠)

أيا راكبا إما عرضت فبلغن أبا غالب أن قد ثأرنا بغالب

ويأتي تكرار مفردة اللوم بصيغها المختلفة(تلوماني,اللوم,الملامة,لومي) في بيتين فقط مؤشرا على تبرم الشاعر وتضايقه من اللوم ومع ذلك فقد منحت هذه التكرارية للأبيات تربطا ووحدة في الأفكار مثلما شكلت مدخلا مناسبا انطلق منه الشاعر في نسج أفكاره بأسلوب السرد القصصي الذي اعتمد عليه بشكل كلي وقد لايكون السرد مقصودا بذاته طالما ان للقصيدة هدف محدد وهو إيصال رسالة رجل سيلقى حتفه وانسجم ذلك الهدف مع قدرة الشاعر وموهبته وفي سياق التكرار نفسه يأتي تعداد الأعلام من رجالات قومه ممن نصحوه بعدم إلا المضي في هذا الطريق لاندما منه على مالفعله بل حسرة على ماسينقضي من عمره ويقينه انه هالك لامحالة بدليل تداركه ذلك بقوله انه لو شاء النجاة لاستطاع ولكنه آثر التقدم دفاعا عن حياض العشيرة حيث يقول:(٢١)

جزى الله قومي بالكلاب، ملامـة صريحهم،والآخرين، المواليـا
أبـا كرب، والايهمين كليهمـا وقيسا، بأعلى حضرموت ،اليمانيا
ولو شئت نجتني، من الخيل، نهدة ترى خلفها الحو الجياد تواليـا

وقد ربط أجزاء السرد في الأبيات المتتابعة بحرف (الواو) التي منحت النص وحكايته تماسكا واضحا وامتدت على مساحة عشرة أبيات من قوله السابق إلى قوله:(٢٢)

ولكني احمي ذمار أبيكم وكان الرماح يختطفن المحاميـا
أقول وقد شدو لساني بنسعة امعشر تيم أطلقوا عن لسانيـا

حتى يقول: (٢٣)

وتضحك مني شيخة عبشميـــة كـان لم تر قبلي أسيرا ، يمـانيـا
وظل نسـاء الحي حولي ركـدا يراودن مني مـاتريد نسـائيـا
وقد علمت عرسي مليكـة إنني أنا الليث معدوا عليـه وعـاديـا
وقد كنت نحار الجزور ، ومعمل الـ مطي وامضي حيث لاحي ماضيـا
وأنحر ، للشـرب الكرام ، مطيتي و أصـدع بين القينتين ، ردائيـا
كنت ، إذا مالخيل شمصها القنـا لبيقا ، بتصريف القناة ، بنـانيـا
وعادية ، سوم الجراد ، وزعتهـا بكفي ، قد أنحو الي العواليـا

ولاشك في إن حديثه الواثق عن زوجته وتأكيده أنها تعرف فروسيته جيدا في الحرب وثباته في الأسر صدى للمرارة التي يستشعرها وهنا تأخذ المرأة في شعر الفارس صورة أخرى غير صورة اللائمة التي اعتدنا عليها (٢٤) وغير صورة الموثبة في الحرب بل صورة الوفية التي تشد أزر الفارس والتي تثق ببأسه وقوته في كل الأحوال وهي هنا عنصر ايجابي يحفز نحو الثبات.

كما نلمح استخدام الشاعر لأساليب متنوعة فرضتها الأفكار التي طرحها في قصيدته ومنها الاستفهام في البيت الثاني والنداء في الأبيات الثالث والخامس والتاسع والتعجب في البيت الحادي عشر والتاسع عشر, ان القراءة المتأنية للنص تكشف صدق الشاعر وإجادته التعبير عن دقائق محنته ساندته اللغة الموحية التي امتازت ببساطة على مستوى المفردات والتراكيب إلى جانب ميزات فنية تتعلق بالاختيار الجيد للأفكار وأساليب التعبير عنها ومع ان القصيدة رثاء للنفس كما يتضح إلا إنها تفترق عن ملامح قصيدة الرثاء العربية القائمة على البكاء والنواح والدعوة إليهما وعرض مزايا المرثي كما تسود أجوائها الكآبة والحزن والتفجع مع اعتمادها كذلك على السرد القصصي إذ يسود هذا النص جو من الثقة والأمل الذي يخدع القارئ أحيانا ويوهمه إن الشاعر ينتظر خلاصا ما ويبدو النص اقرب إلى الفخر منه إلى الرثاء لاتربطه بالأخير إلا الحسرة على الحياة وهنا يفترق نص عبد يغوث عن نص مالك في هذا الجانب إلى جانب أمور أخرى إذ تبدو الأخيرة اقرب إلى أجواء الرثاء وأسلوبه المعتاد وحيث الألم والإحساس بالفجيعة والنواح على النفس مع ان الميزات الأسلوبية تنطلق أساسا من كونه ينتمي إلى مرحلة انتقالية مرت بها القصيدة العربية وبالأدق مرحلة التمهيد للتجديد الذي طال المضامين ولم يصل إلى بنية القصيدة العربية مع الإقرار بالأثر الذي تركه القرآن الكريم في لغة الشعراء وأسلوب تعاطيهم مع الموضوعات ولغة النص بسيطة

وجزلة واضحة عبرت عن أسلوب أشعار البوادي التي ظلت بعيدا عن المتغيرات التي حصلت بسبب عوامل كثيرة أهما اتساع رقعة الدولة العربية والاختلاط بالأجناس الأعجمية وهي في طريقة بنائها تتنفس الروح الجاهلية ويغلب عليها السمة الخطابية والقصصية وفي طريقة ترتيب أفكارها وعرضها تبدو اقرب الى الحوارات اليومية الخالية من التعقيد والملاحظ فيها ظهور نمط تكراري في الأبيات المتتابعة يقوم على تكرار مفردات بعينها تلوح في اول النص فمفردة الغضا تكررت(ست مرات في الأبيات الثلاثة الأولى وهي نسبة كبيرة قد تؤشر ضعفا في الموهبة مثلما إنها قد تعكس تعلقا ذاتيا لمكان بعينة وحنين الشاعر الكبير إليه,يقول:(٢٥)

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلــة بجنب الغضا أزجي القلاص النواجيا
فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه وليت الغضا ماشا الركاب لياليـا

وهي هنا تختلف عن النص الجاهلي السابق حيث تكرار وحيد لمفردة اللوم لأسباب لاتتعلق باللغة الشعرية وذخيرة الشاعر منها بل تتعلق بالأسلوب الذي اعتمده الشعر وهو النهي عن اللوم كما تكررت عند مالك مفردات أخرى مثل ليت في الأبيات السابقة وفي بيتين متأخرين وهو قوله:(٢٦)

فيا ليت شعري هل تغيرت الرحى رحى الحرب أو أضحت بفلج كما هيا
ويا ليت شعري هل بكت أم مالك كما كنت لو عالــو نعياك باكيــا

ومفردة الأعادي في قوله:(٢٧)

وأصبحت في ارض الأعادي بعدما أراني عن ارض الأعادي قاصيـا

ومفردة الهوى في بيتين متلاحقين هما السادس والسابع وخراسان في البيتين (١١،١٢) وتكرار صيغة (لله دري) حيث كرر مفردة(در) ستة مرات في أربعة أبيات وقوله(لن يعدم) مرتين في البيت الخامس والثلاثون وهو أمر لافت للانتباه إذا ماتعلق به بوصفه أسلوبا ميز النص وقد يكون ذلك من آثار أسلوب السرد القصصي الذي اعتمده الشاعر وكان من الممكن ان يمتاز النص بالرتابة لطوله إذ يقع في اغلب الروايات في ثمانية وخمسين بيتا وفكرته الموحدة إلا إن تنوع الأفكار والحالات التي عالجها الشاعر ومزجه الذكريات الماضية بالرؤى المستقبلية حال دون ذلك وهذا النمط التكراري شغل حيزا واسعا من اهتمامات الباحثين القدماء والمحدثين إلا انه في الدرس الأسلوبي يكتسب مكانة متميزة

بوصفه يعبر عن الطاقات الكامنة في النص وهذا النمط المتلاحق في الأبيات المتتابعة يعرف ب(التكرار البنيوي المشجر) ويمتاز بفاعليته التعبيرية وتنظيم الوحدات الجزئية التي يتألف منها النص وتنسيقها (٢٨)والتكرار الاستهلالي بحرف متكرر أو كلمة متكررة يتعدى في وظيفته الصيغة الشكلية التي تعنى بمليء الوحدات الصوتية داخل التراكيب إلى أن يكون أداة ذات فائدة كبيرة تحفظ بنائية الأبيات وتشكيل روابط تعمل على تلاحمها وتواشجها(٢٩) مثلما تعكس اجزاءا من تجربة الشاعر في الحياة ومفتاحا دلاليا للدخول إلى النص لاتصاله الوثيق بالتصوير الفني لان اللفظ المكرر هو مصدر الإثارة وقانون رئيس من قوانين تداعي المعاني(٣٠)ونضيف بان التكرار بما يؤديه من وظيفة صوتية قد حقق تناغم الإيقاع وجمع الأفكار المتعددة في النص إلى وحدة إيقاعية عززت البنية الداخلية للنص .

ويبدو تصارع الأفكار واضحا من خلال هذا المزج بين الماضي وتفاصيله الجميلة وحاضره المأساوي وغيابه المؤكد عن الحياة اثر الخطوة التي غيرت حياته وهي التوجه مع الجيش إلى خراسان ولا يبدو ميالا إلى الاقتناع بها على الرغم من قداسة الهدف وهو الجهاد في سبيل الله إذ انه ألح في تحسره على مافات من حياته ويقسم ان أعاده الله سالما إلى أهله لايغادر أرضه أبدا :(٣١)

إن الله يرجعني من الغزو لارى وان قل مالي طالبا ماورائيا

والبيت الوحيد الذي يشير فيه إلى اختياره التوجه إلى خراسان للجهاد هو قوله:(٣٢)

الم ترني بعت الضلالة بالهدى وأصبحت في جيش ابن عفان غازيا

ويؤكد في بيت متأخر انه اختار ذلك طواعية وبأسلوب من يلوم نفسه على ذلك ويدعو لها بالصلاح وسداد الرأي فيقول:(٣٣)

فلله دري يوم اترك طائعـا بني بأعلى الرقمتين ومالیـــا

وفي هذه النقطة تحديدا عبرت القصيدة عن ملامح عصرها بعد ان خفت الحماسة الدينية تحت وطأة الصراع على السلطة وتفترق القصيدة عما ألفناه في أشعار الفتوحات من نفس ديني وإبراز واضح لفكرة الجهاد في سبيل الله لان النص لاينتمي لهذا النمط من الأشعار بسبب ضعف تأثر صاحبه بالإسلام , وقد نهج الشاعر أسلوبا بسيطا في التعبير عن كل هذه الرؤى والأفكار بغض النظر عن كل شيء لأنه يعيش حياة بسيطة تحكمها المعايير البسيطة وهو هنا يبتعد عما

ألفناه كذلك من أفكار وأساليب في أشعار الصعاليك والفتاك ولا نعرف الدافع الذي يجعل مؤرخيه يصفونه بأنه من فتاك العصر الأموي كما مر عند ابن قتيبة وغيره(٣٤) وربما اشر ذلك اختلافا في مصطلح(الفتاك) وملامح شعرائه وقد ينصرف إلى قطاع الطرق من الشعراء وحسب ممن تغنوا بقدرتهم وهو لايتفق معهم في ذلك ايضا بل يختار أسلوبا مبسطا في التعبير تحكمه الرؤى المادية للحياة ورموزها والقصيدة بأسلوبها القصصي ليست إلا فصولا من حياته السابقة وما سيحصل وما يعانيه في زمنه الحاضر بانتظار الموت ويتجاوز هذا الأسلوب مااعتدناه من صيغ السرد القصصي مع انه يقوم على (فعل القول) ومشتقاته التي ارتكزت على عنصر الحوار إذ تبدو اقرب في أسلوبها إلى (الميلودراما) أي الحوار الداخلي المهيمن على النص حيث قوله:(٣٥)

أقول لأصحابي ارفعوني فانني يقر بعيني أن سهيل بدا ليا

وتوظيفه لأسلوب النداء في الخطاب:(٣٦)

فيا صاحبي رحلي دنا الموت فانزلا برابية إني مقيم لياليا

والانطلاق في سرد الخطوات اللاحقة ومشاهد الدفن وتخيل الكيفية التي يصل فيها الخبر إلى أهله وعشيرته وقد وظف لذلك كله أساليب عده إلى جانب التمني الممثل ب(ليت) كالنداء في الأبيات(٢٣،٤٤) ووجوده ضمنا من غير أداة في أبيات كثيرة وصيغة الدعاء في (لله دري) السابقة والشرط في قوله:(٣٧)

إذا مت فاعتادي القبور وسلمي على الرمس اسقيني السحاب الغواديا

والتعجب في قوله:(٣٨)

الم ترني بعت الضلالة بالهدى وأصبحت في جيش ابن عفان غازيا

ثالثا- المقاربة الفنية بين النصين

من خلال دراسة ملامح المعنى والأسلوب في النصين المتقدمين تتكشف إمكانية عقد مقاربة تنطلق من وحدة الغرض والموقف فمابين النصين عقود من الزمن لم تكن كافية بحكم حركة التطور البطيئة في المجتمع العربي للخروج عن النموذج الفني للقصيدة العربية ونفترض على ذلك إننا أمام عصر واحد فنيا وبالنسبة للمضامين فمن المعروف ان الإسلام والقرآن الكريم قد احدثا أثرا كبيرا جدا من خلال مفاهيم وأفكار جديدة وطور بعض المفاهيم القديمة كما ان ذلك الثبات النسبي الفني للقصيدة انطلق من محاكاة النموذج الفني المتعارف عليه وهي سيادة مستحقة طالما انه كان كافيا وناجحا في التعبير عن حاجات الإنسان

والعصر ولو شئنا البحث عن مقتربات النصين ومفترقاتهما لما عدمنا وجود الكثير من الأمور وكنا قد اشرنا إلى جانب منها أثناء الدراسة السابقة ولتسهيل عمل موازنة شاملة نسبيا بينهما نشير إلى ان هناك ملاحظات سجلت في جانب المعنى والفكر وأخرى في جانب الأسلوب وكما سيرد.

أولا-مقاربة المعاني والأفكار

١- ينتمي النصين إلى غرض واحد عرف برثاء النفس وهو احد أبواب الرثاء مع فارق مهم بين النصين وهو ان نص عبد يغوث يجسد رثاء الفارس لنفسه وفيه تشخيص لملامح شخصية البطل والتي تظهر بوضوح في طريقة التعاطي مع فكرة الموت واستقباله ومع ان فيه حسرة واضحة على الحياة الماضية إلا إنها خلت من الندم ولوم النفس على العكس من نص مالك الذي لم يتردد في إظهار ندمه على اختياره السير في الطريق الذي أوصله للهلاك وقصيدته صور متتابعة لما لايريد ان يخسره المال والأهل وأسلوب الحياة الوادعة وعلى الرغم من انه عرض بشجاعته إلا انه لم يكن مقنعا في الأجزاء التي يتحدث فيها عن بسالته وثباته في مواقف الحرب وكان يمكن باعترافه ان يعود عن قراره لو عاد به الزمن ولكان اختار البقاء حيث يقول:(٣٩)

فان انج من بابي خراسان لااعد إليها وان منيتموني الامانـيا

في حين يؤكد عبد يغوث ثباته وبأنه اختار الثبات في وقت كان بإمكانه الفرار والنجاة بنفسه حيث يقول:(٤٠)

ولو شئت نجتني، من الخيل، نهدة ترى خلفها الحو الجياد تواليا

ويمكن على ذلك ان تكون قصيدة مالك رثاءا للنفس في الوقت الذي تصلح فيه قصيدة عبد يغوث ان تكون رثاءا للبطولة.

٢- تفاوتت اختيارات الشاعرين لمشاهد الحياة التي مرت والتي ستفتقد فعبد يغوث اختار أناشيد الرعاة ومآثره التي تغنى بها كالكرم والشجاعة وشرب الخمرة مما كانوا يتفاخرون به في الجاهلية يقول:(٤١)

أحقـا عباد الله أن لست سامعـا نشيد الرعاة المعزبين المتـاليـا

وقد كنت نحار الجزور، ومعمل الـ مطي وامضي حيث لاحي ماضيا

في حين يفتقد مالك أبناءه وأبويه وصحبه وهواه:(٤٢)

ودر كبيري اللذين كلاهمـا علي شفيق ناصح لو نهانيا

ودر الرجال الشـــاهدين تفتكي بأمري ألا يقصروا من وثاقيا
ودر الهوى من حيث يدعو صحابه و در لجاجاتي و در انتهائيا

ونلمح في أبيات مالك تناقضا بين فكرتي الحياة والموت حياة الرجل وموت الفارس فمابين هذه الأبيات ومابين تأكيده بان من سيبكي عليه سيفه ورمحه وحصانه الذي سيعدم من يسقيه فقط افتراق واضح وتناقض في الأفكار ولا تتضح ملامح رؤية محددة إزاء الموت ولا موقف معين فلا هو مستقبله استقبال الفرسان الشجعان ولا هو مستسلم لقضاء الله وقدره بل نراه قد ضلل نفسه أحيانا بأمل العودة كما انه في الأبيات التي صور فيها مشاهد الموت والدفن ثم بكاء النسوة عليه ثم تركته التي ستورث من بعده قد ابتعد عن رؤية الفارس التي جسدها عبد يغوث بوضوح لابل ان قصيدته كانت سلسلة طويلة من النواح والتفجع والألم في أجواء عكست المأساة .

ومن السهل والحال هذه ان يحمل على نص مالك الكثير من الأبيات لان أسلوبها السلس وبساطة أفكارها تفتح الباب أما نحل أبيات أخرى لتطويل القصيدة وهي كما هو معروف ظاهرة شائعة تصدى لها الجهد النقدي العربي وتوقف عندها الرواة كثيرا من هنا بدا النص مطولا ومكرر الأفكار ومتوقع التفاصيل على عكس نص عبد يغوث الذي تميز بوحدة الأفكار وإيجازها واستقلالية الصور في مقاطع القصيدة المتعددة .

٣- يفصح كل نص عن الطريقة التي سينقاد بها الشعراء في بناء النصوص فالنهي عن اللوم ألزم الشاعر بعرض رؤية تبرر هذا النهي وتأكيد ثباته على النهج الذي اختاره مثلما كان ذلك مناسبة لتأكيد التزامه بمبدأ الدفاع عن القبيلة في الحروب والمواقف المتعددة وكان حضور صور الحياة الماضية مشرفا فعلى الرغم من انه سيفقدها لامحاله إلا انه عاشها بكل تفاصيلها وان كان سيمضي فهو راض عن مآله, في حين أفصح استفتاح مالك لقصيدته بالتمني عن خياراته في الحياة فهو يتمنى لو استمر على طريقته في العيش ولو لم يقرر التخلي عنها ويستجلب التمني الحسرة والمزيد من الحسرة والندم والإشفاق على النفس مما سيحصل بعد موته مع تمسكه بأمل العودة سالما ونلمح ارتباط فكرة الكف عن اللوم بتبرير الخسارة وهو أمر يتناسب وتفكير الفرسان وأشعارهم بعد الهزيمة والذي أرجعها إلى تخلي قومه عنهم واضطراره للبقاء في ساحة المعركة مخافة ان يقال انه جبن وتخاذل في حين تختفي كل الأحاديث المتعلقة

بالمعارك عند مالك والتي خاضها في خراسان تحديدا ولا نعثر إلا على مآثر سابقة مزعومة قبل مرحلة التوجه إلى خراسان ولا اثر لهزيمة يعتذر عنها أو نصر يفتخر به بل بدا ولاحتى جنة خلد يأمل في نيلها طالما انه التحق للجهاد في سبيل الله ونعيد تأكيد الغرض الحقيقي للالتحاق بالجيش المتجه إلى خراسان وهو غرض مادي صرف وطريقة للتكفير عن حياة اللصوصية التي عاشها .

٤- ظهرت رموز الحصان والسلاح والمرأة(الزوجة) بصور متغايرة بين النصين وعبرت عن الرؤى والقناعات التي عرضها الشعراء في قصائدهم ف(فرس) عبد يغوث (الأنثى) كانت قادرة على ان تنجيه من الموت والأسر لسرعتها ورشاقتها وخفتها كما تأنق في الحديث عن (حصان) يركبه للذة الصيد والطرد في خاتمة القصيدة وكثيرا ماارتبط جنس الحصان بالغايات البطولية والحياتية في شعر الفرسان ربما بسبب سرعة الفرس وخفتها التي تحتم استخدامها في المعارك وفي هذا الصدد يقول احد الباحثين: (وكما صدر الشاعر عن مبدأ اللذة في رسم تمثال لامرأة مثالية فانه يصدر الآن عن المبدأ ذاته من اجل صوغ تمثال آخر لحصان مثالي ايضا ولايمكن ان يكون النزوع المثالي إلا شرحا لنزعة التملص من واقع جائر والشاعر الجاهلي لايريد من فرسه وناقته إلا أن تروي عطشه إلى القوة)(٤٣) وجمال الحصان وملائمته لمواقف الصيد وتقييد الأوابد على نحو مانجده في حصان أمريء القيس في قوله:(٤٤):

وقد أغتدي والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيــكل
مكر مفر مقبل مدبر معــا كجلمود صخر حطه السيل من عل

وإيثاره الفرس للمعارك في قوله:(٤٥)

وان أمس مكروبا فيارب غارة شهدت على اقب رخو اللبـان

وتكرار هذه الملامح عنده في أكثر من قصيدة حتى تحولت أشعاره إلى مايشبه القاعدة الفنية التي سار عليها الشعراء.

في حين كان حضور الحصان عند مالك تكميلا لمرحلة مابعد الحرب وغير كونه تركة يظل بلا ساق تكمل صورته مأساوية الصورة لانعثر على أية ملامح له, والحال كذلك في موضوع السلاح فالسيف والرمح التي يجيد عبد يغوث الطعان بها لاتمثل أكثر من أشياء لاحول لها ولا قوة تكتفي بالبكاء على مالك إذا مامات, وبالنسبة للزوجة فقد بينا سابقا إنها كانت موضع ثقة بقدرات زوجها وشجاعته وثباته في مواقف الحرب والأسر وتتحول إلى نقطة ايجابيه في حياة

الفارس وتخرج من إطار اللائمة الشكلي الذي اعتدناه في أشعار الفرسان في حين يتساءل مالك مشككاً على الأغلب ان كانت زوجته ام مالك ستبكيه بما هو أهل له.

ثانيا- مقاربة الأسلوب

١- اختار الشاعران أسلوب الافتتاح ب(إلا) الاستفتاحية المقترنة بأسلوب النهي عند عبد يغوث والتمني عند مالك ومع إمكانية التخلي عنها إلا إنها أدت وظيفة التنبيه وقد اختارها الشعراء نقطة للبدء في أغراض معينة يصعب افتتاح قصائدها بالأطلال أو الخمرة أو الغزل، وكثيرا مايصادفنا هذا الأسلوب في أشعار الحرب وأيام العرب على نحو مانجده عند قيس بن مسعود مثلا في قوله:(٤٦)

ألا ابلغ من بني ذهل رسولا فمن هذا يكون لكم مكـاني

وقول قيس بن الخطيم:(٤٧)

ألا ابلغا الخزرجي عني رسالة رسالة حق ليس فيها مفنـدا

وقول احد شعراء ربيعة يفتخر:(٤٨)

ألا من لليل لاتغور كواكبــه وهم سرى بين الجوانح راكبه

وقول الربيع بن أبي الحقيق اليهودي:(٤٩)

ألا من مبلغ الأكفاء عني فلا ظلم لدي ولا افتــراء

وعكست هنا في النموذجين إحدى أهم ميزات القصيدة العربية القديمة التي تميل إلى الإيجاز الذي ميز اللغة الشعرية ووجود تماثل طبيعي تميزت به اللغة نفسها بين الألفاظ والمعاني إلى جانب الدقة في الاختيار واختزال المعنى في بيت شعري يحقق مفهوم الاستقلالية التي حرص عليها الشعراء العرب قديما إلى الدرجة التي عد فيها الخروج عن هذه القاعدة من عيوب الشعر سمي بالتضمين (٥٠)وكما أسلفنا فاستخدم مخاطبين(لائمين) قد يكون بديلا موضوعيا لصاحبين مفترضين يدعوهما الشاعر إلى الوقوف(قفا) مما ألفناه في الكثير من القصائد الجاهلية وتكرار هذا اللوم مثلا فرصة لتأكيد المبدأ في حين مثل تأكيد التمني وتكراره فرصة لإظهار الندم على مااختار من طريق والرغبة الأكيدة في تغيير الخيار لو أتيحت له الفرصة.

٢- ولان نص عبد نص حربي ونص مالك نص بكائي(ان جاز التعبير) فقد اختلفت الأساليب التي انتهجها الشاعران في صيغها ومعانيها فالنداء الذي جاء في النصين تميز عند عبد يغوث بأنه قد وجه للخصم وهو ليس إلا طلبا

مشروعا لمعاملته وهو الفارس بما يستحق من الاحترام وان قتلوه فإنما قتلوا فارسا وان أطلقوه فقد أطلقوا رجلا يهون عليه المال فيفتدي به نفسه:(٥١)

فان تقتلوني تقتلوني سيدا وان تطلقوني تحربوني ماليا

ولا يمثل المال وسيلة للفداء عند مالك الذي يتحسر بأنه سيؤول إلى الورثة وهو الذي جمعه وتعب في جمعه طوال حياته:(٥٢)

فلن يعدم الولدان بثا يصيبهم ولن يعدم الميراث مني المواليا

في حين نادى مالك صاحبيه طالبا إليهما التوقف ودفنه في رابية من الأرض وتكفينه ودفنه:(٥٣)

فيا صاحبي رحلي دنا الموت فانزلا برابية إني مقيم لياليا

وجريا على الصيغة المألوفة عند الشعراء في الإخبار عن شيء ما جرد الشاعران منادى(فيا راكبا) وهو أسلوب شائع لاسيما في الرسائل المتعلقة بالحرب(٥٤) يقول عبد يغوث:(٥٥)

فيا راكبا إما عرضت فبلغن نداماي من نجران ألا تلاقيا

ويقول مالك: (٥٦)

فيا راكبا إما عرضت فبلغن بني مالك والريب ألا تلاقيا

وبالنظر إلى الغاية التي تقف وراء تجريد راكب ما عند الشاعرين نلمح اختلافا واضحا فعبد يغوث يحمل الركب المفترض رسالة تقطع الأمل بالبقاء والإفلات من المصير المحتوم مع الإقرار بقناعاته في اختيار ماسار عليه من طريق في حين ان مالك كان يضع احتمالية البقاء نصب عينيه ويضيف إلى مهمة التبليغ قائمة من الطلبات ك(سلم على شيخي-بلغ كثيرا- عطل قلوصي) في حين تكتمل حلقة الفخر عند عبد يغوث من خلال توجيه التبليغ إلى نديمين درج على اللهو صحبتهما.

٣-اجتمعت القصيدتين في قافيتهما المطلقة التي ناسبت انقطاع الأمل والحرص على إيصال مايريدان من أخبار إلى ذويهما وما يحملانه من ذكريات جميلة إلى جانب أمور أخرى يفترض مالك وقوعها من حزن الأهل والنسوة وضياع المال وتقاسمه بين الورثة .

ولاشك في ان النصين حملا من ملامح الإجادة والجملية والصدق ماجذب إليهما الأنظار لا لأنهما عبرا عن رغبات وأمنيات اللحظة الأخيرة بقدر كونهما

تمثيلا مناسبا لما يمكن ان يتركه الواقع وتقلبات الحياة من اثر في النفس البشرية.

مصادر الدراسة

١- اتجاهات التأويل النقدي من المكتوب إلى المكبوت-محمد عزام-الهيئة العامة السورية للكتاب-دمشق-٢٠٠٨.
٢- الاصمعيات- اختيارات الأصمعي:أبي سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك(ت٢١٦هـ)-تحقيق:احمد محمد شاكر وعبد السلام هارون-ط٢- دار المعارف-مصر-١٩٦٤.
٣- تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام-د.نوري حمودي القيسي وآخرون-ط٢-دار الكتب للطباعة والنشر-الموصل-٢٠٠٠.
٤- التكرار في الشعر الجاهلي(دراسة أسلوبية)-موسى ربايعة-مؤتمر النقد الأدبي-جامعة اليرموك-الأردن.
٥- التكرير بين المثير والتأثير-عز الدين السيد علي-ط٢- دار الطباعة المحمدية-القاهرة-١٩٧٨.
٦- الحياة والموت في الشعر الجاهلي-د.مصطفى عبد اللطيف جياووك-دار الحرية للطباعة-بغداد-١٩٧٧.
٧- ديوان شعر الأيام-دراسة وتحقيق:د.عفيف عبد الرحمن-ط١-دار صادر-بيروت-١٩٩٨.
٨- ديوان قيس بن الخطيم-تحقيق:د.ناصر الدين الأسد-ط٢-دار صادر-بيروت-١٩٦٧.
٩- ديوان كعب بن زهير-تحقيق:حنا نصر الحتي-دار الكتاب العربي-بيروت-١٩٩٤.
١٠-ذيل الامالي والنوادر-أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي(ت٣٥٦هـ)-ط٣-دار الفكر-بيروت.
١١-شرح اختيارات المفضل-الخطيب التبريزي - تح:د.فخر الدين قباوة-ط٢-دار الكتب العلمية-بيروت-١٩٨٧.
١٢-شعر عروة بن الورد-تحقيق:محمد فؤاد نعناع-مكتبة دار العروبة-الكويت-١٩٩٥.
١٣-شعر لقيط بن يعمر الأيادي-(دراسة صوتية)- د.قاسم راضي مهدي البريسم- دار الشؤون الثقافية العامة-سلسلة الموسوعة الصغيرة-بغداد-١٩٩١.
١٤-الشعر والشعراء-ابن قتيبة:أبو عبد الله بن مسلم الدينوري(ت٢٧٦هـ)-تحقيق:احمد محمد شاكر-دار الحديث –القاهرة -٢٠٠٣.
١٥-ظواهر أسلوبية في شعر بدوي الجمل-عصام شرتح-منشورات اتحاد الكتاب العرب-دمشق-٢٠٠٥.
١٦-العين- الخليل بن احمد الفراهيدي(ت١٧٥هـ)-تحقيق:د.مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي-دار الحرية للطباعة-بغداد- ١٩٨٤.
١٧-معجم تراجم الشعراء الكبير-تأليف وإعداد:د.يحيى مراد-دار الحديث- القاهرة- ٢٠٠٦.

١٨-الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء-المرزباني:أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى بن سعيد(ت٣٨٤)-ط٢- القاهرة-١٣٨٥.

الرسائل الجامعية:

١-الفأل والطيرة في شعر ماقبل الإسلام-نصرة أحميد الزبيدي-رسالة ماجستير –كلية التربية للبنات-جامعة الانبار-١٩٩٦

الهوامش

١- ينظر ذيل الامالي /١٣٥.
٢- شرح اختيارات المفضل ٧٦٦/٢.
٣- معجم تراجم الشعراء الكبير/٥٣٢.
٤- الشعر والشعراء ٣٤١/١.
٥- ينظر معجم تراجم الشعراء الكبير/٥٣٢.
٦- شرح اختيارات المفضل٧٦٧/٢.
٧- ذيل الامالي/١٣٥.
٨- شرح اختيارات المفضل ٧٦٧/٢.
٩- نفسه ٧٦٨/٢-٧٦٩.
١٠- نفسه ٧٦٩/٢.
١١- الحياة والموت في الشعر الجاهلي/٢٠٠.
١٢- شرح اختيارات المفضل٧٧٣/٢.
١٣- ذيل الامالي/١٣٥.
١٤- السانح: مأخوذ من قولهم سنح لي طائر أو ظبي سنوحا فهو سانح إذا أتاك عن يمينك، ينظر العين ١٤٥/٣، الفأل والطيرة في شعر ماقبل الإسلام/١٠.
١٥- ذيل الامالي/١٣٧.
١٦- نفسه/ ١٤٠.
١٧- المصدر والصفحة نفسهما.
١٨- شرح اختيارات المفضل٧٦٦/٢.
١٩- ينظر شعر عروة بن الورد/٤١،ديوان كعب بن زهير/١٢٤.
٢٠- الاصمعيات/ وفي /٧٤ قصيدة كعب بن سعد الغنوي /١١١،ديوان كعب بن زهير/١٠٨.
٢١- شرح اختيارات المفضل ٧٦٨/٢.
٢٢- نفسه٢/ ٧٦٩-٧٧٠.
٢٣- نفسه٧٧٣/٢.
٢٤- ينظر تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام/١٨٨.
٢٥- ذيل الامالي/ ١٣٥.
٢٦- نفسه/١٣٨.
٢٧- نفسه/١٣٦.
٢٨- ظواهر أسلوبية في شعر بدوي الجمل/٣٤.
٢٩- التكرير بين المثير والتأثير/١٣٧.
٣٠- التكرار في الشعر الجاهلي/٣٤.
٣١- ذيل الامالي/١٣٦.

٣٢- نفسه/ ١٣٥.
٣٣- نفسه/ ١٣٦.
٣٤- ينظر الشعر والشعراء١/٣٤١،معجم تراجم الشعراء الكبير/٥٢٣.
٣٥- ذيل الامالي/١٣٧.
٣٦- المصدر والصفحة نفسهما.
٣٧- نفسه/١٤٠.
٣٨- نفسه/١٣٥.
٣٩- نفسه /١٣٦.
٤٠- شرح اختيارات المفضل٢/٧٦٨.
٤١- نفسه ٢/٧٧٠.
٤٢- نفسه٢/٧٧١-٧٧٢.
٤٣- اتجاهات التأويل النقدي من المكتوب إلى المكبوت/٢٩٧.
٤٤- ديوانه/٣٣ وينظر الصفحات:١٨٥،٩١.
٤٥- نفسه/١٠٧،وفيها بيتان في المعنى نفسه.
٤٦- ديوان شعر الأيام/١٠٨ وينظر البيت الآخر بالافتتاح نفسه/١٠٩.
٤٧- نفسه/١٣٩ والبيت في الديوان /٢١٦.
٤٨- نفسه/١١١.
٤٩- نفسه/١٣٢.
٥٠- ينظر الموشح/٣٨٤.
٥١- شرح اختيارات المفضل٢/٧٧٠.
٥٢- ذيل الامالي/١٤٠.
٥٣- نفسه/١٣٧.
٥٤- شعر لقيط بن يعمر الأيادي/٣٣،وفيه يقول:
بل أيها الراكب المزجي على عجل نحو الجزيرة مرتادا ومنتجعا.
٥٥- شرح اختيارات المفضل٢/٧٦٧.
٥٦- ذيل الامالي/١٤١.